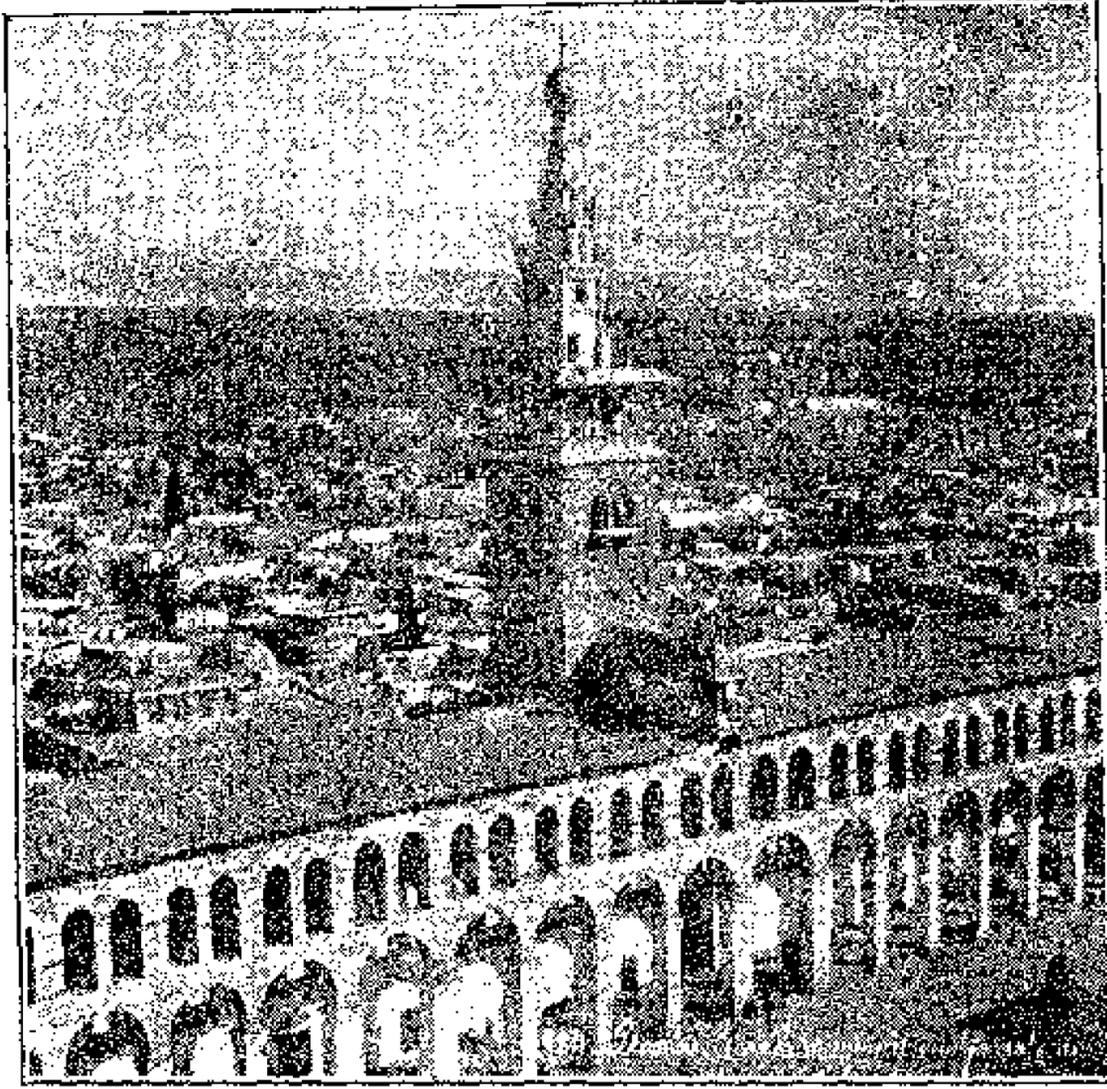


❦ وصف دمشق ❦

جاء ذكر الشيخ النابلسي ص ٢٨٠ وهذه ابيات مختارة من قصيدته في وصف الشام
 ان سامك الخطبُ المهولُ فاقلقا فانزل بارض الشام واسكن جلقا
 بلدٌ سمت بين البلاد محاسنا ونمت بهاء واستزادت روتقا
 ان تمشقوا وطناً فذي اولى بكم دون البلاد بان تحب وتُمشقا
 خيرُ الأناس اناسها يرعون أنسوا وعاد الوداد ويحفظون الموثقا
 طابت هواء للنفوس وماؤها عذبٌ زلالٌ سائغ لمن استقى
 يا حسن واديها وطيب شميمه قد فاح عرف الزهر فيه وعبقا
 وتراسلت اطياره بين الربى سحراً فهيجت الفؤاد الشيقا
 كيف اتجهت يخر نحوك ماؤه واليك يركع كل غصن اورقا
 يا حبذا اشراق مرجتها التي أضحي غنيهم فيها مملقا
 وتلاعبت فرسانها وتراكضت ما بينها تلو الجياد السبقا
 ضحكت ازاهرها على اغصانها فأنى النسيم يُميلن وصفقا
 سُقيت دمشق الشام صوب غمامة اشقى على غيظاتها فتدققا
 كم نزهة للمين فيها قد زهت وسرت على طرف الهوم فاطرقا
 لم ترض عيني غيرها من منظر ولذا ترى قلبي بها متعلقا
 هي منشائي لا حاجرٌ وطويلع ومحل أنسي لا الغوير ولا النقا
 وطني واول ما وطئت بها الثرى لا زال عيشي عن حماها مطلقا
 لُد يا فؤاد بما بها من معشر

الشيخ عبد الغني النابلسي



دمشق الشام والجامع الاموي

الجامع الاموي

هو من أشهر جوامع الاسلام حسناً واتقانَ بناءٍ وغرابةِ صنعةٍ واحتفالِ تزيينٍ وتزيينٍ، وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه . انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك ووجه الى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بأشخاص اثني عشر ألفاً من الصناع من بلاده وتقدم اليه بالوعيد في ذلك ان توقف عنه ، فامتثل أمره مدعياً بعد مراسلة جرت بينهما في ذلك مما هو مذكور في كتب التواريخ فشرع في بنائه وبلغت الغاية في

التأنيق فيه وأنزلت جذره كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفساء، وخالطت بها أنواع من الاصبغة الغريبة قد مثلت اشجاراً وفرعت اغصاناً منظومة بالفصوص ببدايع الصنعة الانيقة المعجزة وصف كل واصف . فجاء يفشي العيون وميضاً وبصيصاً . وكان مبلغ النفقة فيه احد عشر الف دينار ومئتي ألف دينار

ذرعه في الطول من الشرق الى الغرب مئتا ألف خطوة وهما ثلاث مئة ذراع . وذرعه في السعة من القبلة الى الشمال مئة خطوة وخمس وثلاثون خطوة وهي مئتا ذراع . فيكون تكسيه من المراجع الغربية اربعة وعشرين مرجعاً . وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاث مستطيلة من الشرق الى الغرب ، سعة كل بلاطة منها ثمان عشرة خطوة ، والخطوة ذراع ونصف . وقد قامت على ثمانية وستين عموداً منها اربع وخمسون سارية وثمانية ارجل جصية تتخللها . واثنان مرخمة ملصقة بالجدار الذي يلي الصحن وأربع ارجل مرخمة أبدع ترخيم مرصعة بفصوص من الرخام ملونة

واعظم ما في هذا الجامع المبارك قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وهي عظيمة الاستدارة قد استقل بها هيكل عظيم هو غارب لها يتصل من المحراب الى الصحن فاذا استقبلتها ابصرت منظراً رائعاً ومرأى هائلاً ، يشبهه الناس بنسر طائر كأن القبة رأسه والغارب جؤجؤه ، ونصف جدار البلاط على يمين والنصف والثاني على شمال جناحيه ، وسعة هذا الغراب من جهة الصحن ثلاثون خطوة فهم يعرفون هذا الموضع من الجامع بالنسر لهذا التشبيه الواقع عليه . ومن اي جهة استقبلت البلد ترى القبة في الهواء

منيفة على كل علو كأنها معيقة في الجو . والجامع مائل الى الجهة الشمالية من البلد وعدد شمسياته الزجاجية المذهبة الملونة اربع وسبعون والبلاط المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات من ثلاث جهات على اعمدة وعلى تلك الاعمدة ابواب مقوسة تحملها اعمدة صغار تطيف بالصحن كله . ومنظر هذا الصحن من أجل المناظر واحسنها . وفيه مجتمع اهل البلد وهو متفرجهم ومنتزههم كل عشية تراهم فيه ذاهبين وراجعين من شرق الى غرب من باب جيرون الى باب البريد . فمنهم من يتحدث مع صاحبه ومنهم من يقرأ . ولا يزالون على هذه الحال من ذهاب ورجوع الى انقضاء صلاة العشاء الآخرة ثم ينصرفون .

وفي الصحن ثلاث قباب احداها في الجانب الغربي منه وهي اكبرها وهي قائمة على ثمانية اعمدة من الرخام مستطيلة كالبرج مزخرفة بالفصوص والاصبغة الملونة كأنها الروضة حسناً وعليها قبة رصاص كأنها التنور العظيم الاستدارة ، يقال انها كانت مخزناً لمال الجامع ، وله مال عظيم من خراجات ومستغلات تديف على ما ذكر لنا على الثمانية آلاف دينار صورية في السنة وهي خمسة عشر الف درهم مؤمنة او نحوها . وقبة اخرى صغيرة في وسط الصحن مجوفة مثمثة من رخام قد أُلصق أبداع الصاق قائمة على اربعة اعمدة صغار من الرخام وتحتها شبك حديد مستدير وفي وسطه انبوب من الصفر يرمي الماء علواً فيرتفع وينثني كأنه قضيب من لجين يشربه الناس لوضع افواههم فيه للشرب استظرافاً واستحساناً ، ويسمونه قفص الماء . والقبة الثالثة في الجانب الشرقي قائمة على ثمانية اعمدة على هيئة القبة الكبيرة

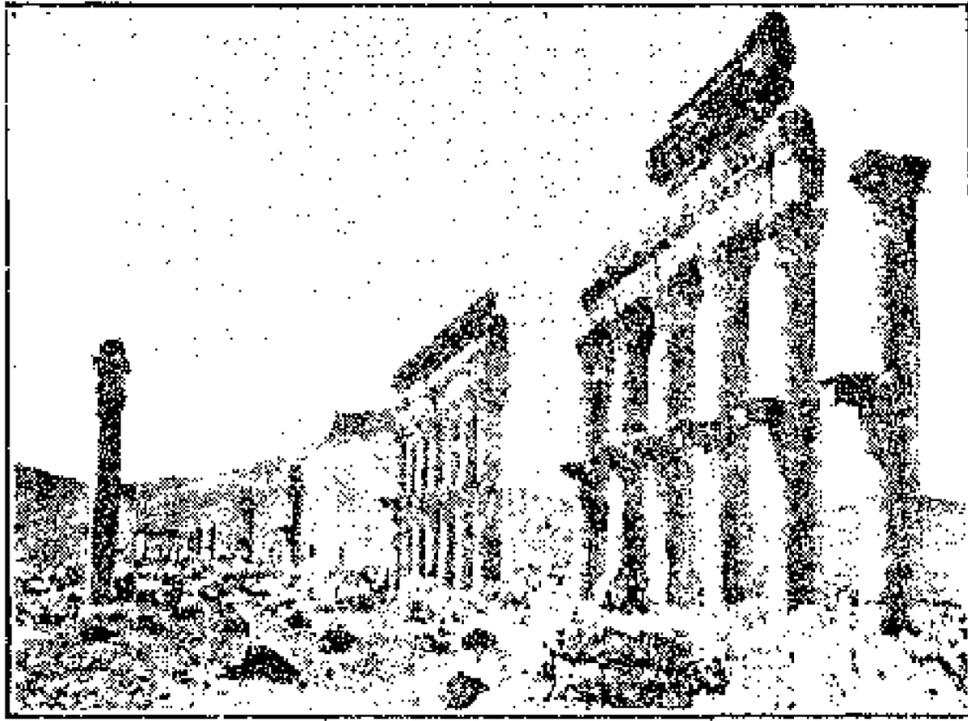
وكان هذا الجامع المبارك ظاهراً وباطناً منزلاً كله بالفصوص الذهبية مزخرفاً بأبدع زخارف البناء المعجز الصنعة ، فادركه الحريق مرتين ، فهدم وجرّد وذهب أكثر رخامه فاستحال روثقه ، وأسلم ما فيه اليوم قبلته مع الثلاث قباب المتصلة بها . ومحرابه من اعجب المحاريب الاسلامية حسناً وغرابة صنعة ، يتقد ذهباً كلها وقد قامت في وسطه محاريب صفار متصلة بجداره تحفها سويريات مفتولات قتل الاسورة كأنها مخروطة لم ير شيء اجمل منها ، وبعضها احمر كأنها مرجان . فشان قبلة هذا الجامع المبارك مع ما يتصل بها من قبابه الثلاث واشراق شمسياته الذهبية الملونة عليه واتصال شعاع الشمس بها وانعكاسه الى كل لون منها كله عظيم لا يلحق وصفه ولا تبلغ العبارة بعض ما يتصوره الخاطر وفي الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان (رض) وهو الذي وجه به الى الشام . وتفتح الخزانة كل يوم إثر الصلاة فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله وعن يمين الخارج من باب جيرون ، في جدار البلاط الذي أمامه ، غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان من صفر قد فتحت أبواباً صفاراً على عدد ساعات النهار ، ودثرت تديراً هندسياً فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من في بازين مصورين من صفر ، قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما . احدهما تحت اول باب من تلك الابواب والثاني تحت آخرها ، والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة وتبصر البازين يمدان

عنقيهما بالبندقيتين الى الطاستين ويقذفانها بسرعة بتدبير عجيب تخيله
 الاوهام سحراً ، وعند وقوع البندقيتين في الطاستين يسمع لهما دوي وينفلق
 الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر . ولا يزال كذلك
 عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تنفلق الابواب كلها وتنقضي
 الساعات ثم تعود الى حالها الاول . ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك ان في
 القوس المنعطف على تلك الطيقتان المذكورة اثنتي عشر دائرة من
 النحاس محرمة ، وتعرض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار ، وخلف
 الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فاذا انقضت عم
 الزجاجة ضوء المصباح وأفاض على الدائرة شعاعاً فلاحت للابصار دائرة
 محمرة ثم انتقل ذلك الى الاخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمم الدوائر
 كلها . وقد وكل بها في العرفة متفقد لحالها دربٌ بشأنها وانتقالها يعيد فتح
 الابواب وصرف الصنج الى موضعها وهي التي يسميها الناس الميقاتة . . .

ابن جبير زار دمشق سنة ٥٨٠ هـ

قال النابغة الذبياني يمدح النعمان

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه ولا أحاشي من الاقوام من احد
 إلا سليمان اذ قال الاله له قم في البرية فاحدها عن الفند
 وخيس الجن اني قد اذنت لهم يبنون تدمرُ بالصفاح والعمد
 ولا احاشي : ولا استثني — واحدها عن الفند : صنمها عن الظلم — خيس :
 ذئب — الصفاح : حجارة عراض رفاق — العمد : السواري من الرخام وهي
 الاساطين واحدها اسطوانة



تدمر

« ملكة الصحراء (١) »

اذا سرت في بادية الشام وقاربت الوصول الى حاشية منها ، تظهر لك عن بعد شاسع من خلال الحجب الهوائية الشفافة نقطة سوداء في الشمال الغربي من حمص وحماه ، فتنتعش نفسك وتشعر بقرب آثار الحياة ، بعد ان تكون سرت اياماً في ظل الموت محاطاً بسكون الطبيعة الراقدة . ولا تكاد تتقدم قليلاً الى الامام حتى تنقشع الحجب شيئاً فتتسع تلك النقطة وتنجلي بعد حين عن دائرة خضراء غير منتظمة ، ولا تزال الدائرة آخذة بالوضوح والانتشار ذات اليمين وذات اليسار كلما

(١) من « دليل لبنان وسوريا » الذي أنشأه اخيراً حضرة الكاتب الفاضل الشيخ بولس مسعد وهو سيمثل قريباً للطبع في نحو ألف صفحة مزينة بزهاء مائة رسم تمثل أشهر وأجمل ما في لبنان وسوريا من الآثار القديمة والمناظر الطبيعية

اسرعت الخطى ، الى ان تشرف عليها وتقف برهة مستنشقا الصعداء فاذا بك امام اثر من آثار الجيابرة الذين كان يتغنى بمدحهم شعراء اليونان . ترى جبلاً منتصباً على طرق البادية كسورٍ منيع اقامته يد الطبيعة هناك لصدّ الغارات عن مملكة زنوبيا يتدفق من جوفه نبع غزير تنساب مياهه الكبريتية في بقعة خضراء منبسطة امام الجبل بين بساتين غضة حافلة بأشجار الفاكهة على اختلاف انواعها وحقول واسعة زرعت بانواع الحبوب ومروج خضراء تتخللها وهي مرعى خصيب تغشاه قطعان الماعز والضان . تقف وتسرح النظر حيناً في تلك البقعة الجميلة ، فتتمثل لك الطبيعة ضاحكة باسمه الثغر فتؤنس وحشتك وتنفس كربتك وتندسك هذه الابتسامة اللطيفة من « عروس البادية » كل ما لقيته قبل وصولك اليها ومصاحبتك لها من عبوسة واكفرار في باديتها القاحلة الجرداء . وفي وسط هذه البقعة الجميلة ركام من الخرابات ، تتخللها ابنية نخيمة متهدمة آية في الابداع واعمدة ضخمة متناسقة تناطح السحب ، ممتدة على مسافة بعيدة كصف من الجيابرة اقامتهم ملكة المشرق حراساً على باب باديتها او كأنما هي ايدٍ مدها اليك ملكة الصحراء من وراء حجب التاريخ لتصافح ضيفاً كريماً جاء يحيتها في مقر ملكها . فتقف حائراً مبهوراً وترى مجالي العظمة والجلال بادية على تلك الآثار الضخمة . فتدرك انها آثار قوة هائلة حلت في تلك البقعة من البادية ردحاً من الدهر ، فدانت لها الممالك وانقادت اليها الشعوب تلك آثار تدمر موطن زنوبيا ، ملكة المشرق وعدوة الرومان ، ومنقذة سوريا من رق العبودية ، . . . وأهم آثار تدمر واقعة في سفح ربوة ممتدة

من الشمال الشرقي الى الشمال الغربي على مسافة ثلاثة فراسخ ، وهي مؤلفة من آثار هيكل عظيم جعله العرب في القرون الوسطى قلعة حصينة ، والى جوانبها كثير من آثار الهياكل والقصور الفخيمة ، بينها انقاض من عهدين مختلفين : بعضها سابق لعهد بخت نصر وهي ركام من الابنية المتهدمة المبعثرة والبعض يرتقي عهده الى القرون الثلاثة الاولى بعد المسيح . ومعظمها قائم الى اليوم وليس فيها كتابة ما سبقة لعهد المسيح او لاحقة لعهد ديوكليسيانوس . ومن هذه الآثار اعمدة تفوق الحصر لا يقل علو الواحد منها عن ١٥ متراً ووراءها قصور متهدمة وابواب وسراديب واروقة وتماش واقواس . والارض مغطاة باحجار واعمدة محطمة على اكثرها نقوش بديعة . وفي الجهة الغربية من الهيكل الكبير كثير من المدافن ووجد على بعضها كتابات فينيقية ويونانية . وفي السهل الواقع جنوبي النبع مدافن اخرى مقفلة باحجار ضخمة لم تستخرج كنوزها الى الآن . وفي سفح الجبل كثير من هذه المدافن اهمها وافخمها ما كان واقعاً على الضفة اليمنى من النهر في سفح جبل بلقيس او «ملكة سبا» ومن آثار تدمر سور يستنيانوس وهو سور ضخم تتخلله ابراج شاهجة ، شيد اكثرها الفاتح الروماني لصد اغارات العرب عن المدينة . وعلى قمة الجبل حصن قديم يعرف بقلعة « ابن معن » وهو من عهد فخر الدين المعني الامير اللبناني المشهور الذي بسط سلطته على سائر بلاد الشام ، وهو مشرف على تدمر وضواحيها فتراها منسبطة امامك بهياكلها وقصورها وما بقي من اعمدتها وترى هيكل الشمس قائماً في وسطها كقمامة عظيمة . وفي الجهة الغربية منه الآكام القائمة

عليها مدافن الملوك والعظماء تنبسط امامها بادية الشام التي تحدها على بعد شاسع جبال متقطعة تتخلها معابر القوافل التي كانت تسير الى عهد قريب في تلك الفلوات بين دمشق وبغداد . وبالأجمال ليس بين المدن القديمة مدينة جامعة بين كثرة الآثار القديمة وضخامة الابنية وفخامتها ودقة نقوشها واهميتها التاريخية كمدينة تدمر الا مدينة بعلبك فهما اثران يعدان من اعجب آثار الاقدمين في سائر الاقطار قاطبةً

وكان لتدمر في العصر الخالية شأن خطير وقد كان وقوعها على طريق القوافل التي كانت تسير بين دمشق وبغداد من أهم الأسباب التي مهدت لها السبيل الى بلوغها شأواً بعيداً من الحضارة وال عمران فكانت مركزاً تجارياً متوسطاً بين اوربا وداخلية آسيا تشحن اليها المنسوجات الحريرية من الهند ومحصولات الارض من البلاد الاسيوية المجاورة لها فترسل منها الى اوربا . اما قبل المسيح فلم يكن لها من الشأن ما كان للمدن السورية الاخرى ولم يرد ذكرها في التوراة بين تلك المدن وجل ما ذكر في سفر الملوك وفي سفر الاخبار ان سليمان الحكيم بنى تدمر وشيد فيها هيكلاً عظيماً لبعال وسماها تدمر اي مدينة النخل لكثرة ما كان هناك منه

وفي ايام السلوقيين خلفاء الاسكندر كانت خط الاتصال بين انطاكية وسلوقيه « اللاذقية » عاصمتي مملكتهم وسميت لعهدهم بلميرا Palmyre مترجمة عن اسمها الاصلي . وفي ايام الرومانيين ازهرت بمتاجرها وصناعاتها وضاهت اعظم المدن السورية ولاسيما في القرن الثالث للمسيح اذ كان يحكمها اودينات الذي أدى خدماً جليلاً للرومانيين

في حروبهم ضد سابور ملك الفرس . فقهره في عدة مواقع دموية جرت له معه وردّه الى ما وراء الفرات . فمنحه الرومانيون لقب ملك مكافأة له على ولائه وشجاعته واعترفوا له بحقوق الملكية . وكانت زوجته زنوبيا (وتعرف عند العرب بزبيدة) من ارقى بنات جنسها في ذلك العصر وكان لها اليد الطولى في رفع منزلته عند الرومان بما اوتيت من الخنكة والدهاء السياسي . ولم يكن يعرض له امر الا شاورها به ووقف على رأيا فيها . فتضافرا على رفع شأن المملكة . ومات اودينات سنة ٢٦٧ م . مقتولاً بيد احد كتبة سرّه تاركاً الحكم لزوجته زنوبيا . وكانت هذه الملكة تدّعي انها من نسل كليوباترا ملكة مصر . وقيل انها بنت امير عربي . وكانت تتكلم لغة وطنها فينيقيا وتجيد اللغة القبطية واليونانية واللاتينية . فادخلت المدينة اليونانية والرومانية الى عاصمة ملكها بانشائها مدارس كبرى كان يؤمها طلاب العلوم بحيث لم يكدر دور الاول من حكمها حتى كانت تدمر من ارقى مدن العالم ولما نودي بها ملكة على تدمر منحها مجلس الشيوخ الروماني لقب اوغسطس وانتحلت لقب ملكة تدمر وملكة المشرق ولم يكدر يستتب لها الامر حتى طمعت بمخلم نير الرومانيين فجيشت الجيوش واخذت تطاردهم من آسيا وكانت ذات جراءة غريبة واقدام عجيب ، تسير الى الحرب في طليعة الجيش وكان عدده ٧٠ الفاً . وما زالت كذلك حتى ملكت سوريا باكملها من اقاصي بلاد الشام حتى بلاد فارس . وقد زحفتم على مصر واستحوزت على قسم منها واستولت ايضاً على اقاليم اخرى من الامبراطورية الرومانية الضخمة وحالفت الفرس ، فحسدها القياصرة والملوك ، واشفقوا منها على

ممالكهم ان تضمامها الى مملكتها الجديدة وظلوا يراقبون حركاتها بين الحذر وهم مترددون بين محاربتها وموالاتها الى ان تبوأ اورليانوس العرش فحصرهم في اخضاعها . وسار بجيوشه الى المشرق وقاتلها في عدة مواقع ، اشهرها موقعتان في سهل انطاكية وسهول حمص استظهر فيهما عليها ، وبلغ الى تدمر فحاصرها و اشار على ملكتها بالتسليم فابت فشد الحصار على المدينة وسلم اهلها سنة ٢٧٢ . اما زنوبيا فركبت هجينا تريد بلاد فارس فقبض عليها فرسان الرومانيين عند باب المدينة ، واخذها اورليانوس اسيرة الى رومية وعاملها معاملة ملكة عظيمة الشأن مفاخرًا بالنصر الذي احرزه على اكبر ملكة كانت تهتز لها اعصاب الامبراطورية الرومانية فاعدت لها قصرًا فخياً في مدينة تيقولي بالقرب من رومية فقضت حياتها فيه تحف بها العظمة والجلال

وقد اجمع المؤرخون على انها كانت فتاة فائقة الجمال شديدة النزوع الى الحروب والفتوحات ، واشتهرت بحذقها وسمو مداركها وشدة بأسها حتى جرت اوصافها مجرى الامثال في الاعصر الخالية . وفي لبنان آثار عديدة منسوبة الى زبيدة منها اقية الماء الممتدة من نهر بيروت الى المدينة ومن نهر ابراهيم الى جبيل ومن نهر قديشا الى كورة طرابلس

ثم قام ديوكلتيانوس ويستنيانوس فحاولا اعادة تدمر الى مجدها السالف فاخفق سعيهما . ومنذ ضربها اورليانوس تلك الضربة النجلاء قضى على شهرتها وتاريخها قضاءً مبرماً فاخذت من ذلك الحين بالانحطاط الى ان باتت أثراً بعد عين وغاصت في لجة عميقة من النسيان قرونًا طوالاً كانت

فيها قرية حقيرة لا شأن لها يعرفها علماء الجغرافية بكونها حداً لبادية الشام
في الشمال الغربي من حمص وحماه

وقد ذهب بعض المؤرخين الى ان معظم سكان تدمر وضواحيها
كان في ايام زنوبيا مؤلفاً من العرب بدليل ان اكثر الاسماء الواردة في
الكتابات اليونانية القديمة التي وجدت في تدمر عربية محضة ومثلها
الكتابات التي وجدوها في حوران فانها عربية اللفظ والمعنى وان تكن
مكتوبة باحرف يونانية . وفي بعض التواريخ ان تدمر ظلت في امن من
غزوات العرب المسلمين دهرًا طويلاً ولكنها قاست الشدائد في حروب
الامويين والعباسيين سنة ٧٤٥ م . وما يليها . وقد زارها العالم الفرنسي
قواني سنة ١٧٥٨ فوصفها ابداع وصف ومزق ما كان مسدولاً على تاريخها
من الحجب الكثيفة والفت وصفه لها انظار العلماء والسياح فطفقوا
يتقاطرون اليها من كل حدب وصوب لمشاهدة آثارها العجيبة

فجذا لو كانت حكومتنا الدستورية الجديدة تتمثل بالحكومات
الاوربية فتصرف بعض عنايتها الى الآثار القديمة الحافلة بها البلاد السورية
فان في جمع هذه الآثار في متاحف خصوصية من الفوائد المادية ما لا
يقل قيمة في اعتبار الامم المتقدمة عما في ذلك من عبر التاريخ البالغة
والفوائد الادبية للبلاد التي تشتمل على آثار جليلة كآثار تدمر وبعابك
ودمشق والقدس وغيرها مما يعرض لنا كل يوم ان نورده مثلاً من الامثلة
العديدة على بلوغ التمدن الشرقي اقصى درجات الكمال في زمن كانت
اوربا تتخبط في دياجي الجهل والانحطاط